لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

وثالثة في طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[2].

مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنة آدم، كما وذكرت قصة المعركة المصيرية بين إبليس وآدم في سبعة هذه منها، معركة تفتح للغاوين السبعة أبواب الجحيم كما ذكرت في سبعة، ندرس الثلاثة هنا ونترك السبعة إلى محالها، وفي الهامش عرض الاعتراضات السبعة الإبليسية[3].

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٩ - ٢٥.

(٢) سورة طه، الآيات: ١١٥ - ١٢٣.

(٣) في تفسير الفخر الرازي: ٢/ ٢٣٦: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى بالملل و النحل عن ماري شارح الأناجيل الأربعة، وهي مذكورة في التوراة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود، قال إبليس للملائكة: =

. . . . . .

= إني أسلم أن لي إلهاً هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة:

الأول: ما الحكمة في الخلق لا سيّما إن كان عالماً بأن الكافر يستوجب عند خلقه الآلام؟.

الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود منه ضرر ولا نفع وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟.

الثالث: هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟.

الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلِمَ لعنني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر؟.

الخامس: ثم لما فعل ذلك فلِمَ مكنّني من الدخول إلى الجنة ووسوست لآدم؟.

السادس: ثم لما فعلت ذلك فلِمَ سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟.

السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلِمَ أمهلني؟ ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً!..

هكذا زين لإبليس سوء تفكيره والجواب كلمة واحدة:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] حيث المسؤول تنديداً ليس إلّا لجاهل أو العامد الخاطئ والظالم المفتاق، وأما الغني الحميد والعالم الذي علمه لا يبد فلم يسأل إلّا إلا كفهما!

ثم الحكمة في الخلق هو إظهار لطفه ورحمته وإبراز عطفه ونعمته، فما لمن بدّل نعمة الله نقمة أن يعترض على ما أتاه الله من نعمة. ثم التكليف ليس لفائدة إلى الله من دفع ضر أو جلب نفع، وإنما العائدة إلى المكلفين واستكمالاً للهدف من خلقهم فـ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] وتحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة وعطالة وهي خلاف الحكمة.

ثم التكليف بالمعرفة والطاعة لزامه الابتلاء بالأمر والنهي، ومنه السجود لآدم إظهاراً لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاء عما أضل.

وليس العذاب واللعنة إلّا من خلفيات العصيان أيًّا كان دونما ابتغاء فائدة لله أم لغيره وإنما جزاء وفاقاً هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته، ولكي لا يسوّي بين المحسن والمسيء، وليحذر كل سيّئ.

وفي تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية، فلو لم يمكّن العاصي في عصيانه لم يفرّق بين المطيع والعاصي وهذا ظلم وتسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير، وإنما تخيير دون إلزام، لا في إغواء ولا إهداء، وحجج الله البالغة كافية لولد آدم تركاً لطاعة إبليس، وفي ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الإيمان مخلصين وغير مخلصين، ولتمييز=

وفي هذه القصة مسارح للبحث والتساؤل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها، تاركين الأقاويل والروايات المتناقضة التي لا تلائمها، كما هو دأبنا في تفسيرنا ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1] فعلّنا نكون ممن يصلح ولا يفسد في آي الذكر الحكيم.

فما هي جنة آدم؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية؟ وما هي الشجرة المنهية؟ وكيف النهي؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة وهو نبي؟ وكيف استطاع إبليس أن يزلّهما وهو خارج الجنة إذ أُمر بالهبوط قبله؟ ومَن هم المأمورون بالهبوط: «اهبطوا»؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هذه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته.

١ - جنة آدم

ترى إنها جنة الخلد؟ وكما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها؟

١ - وجنة الخلد هي خُلد دونما شرط الأكل من شجرة خاصة منها، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعاً فيها: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿١٢١﴾﴾[2] وآدم أعرف بها منا إذ دخلها، فلو كانت هي الخلد لم يزلّ للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد وملك لا يبلى!

= الصالح عن غيره، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.
وفي إمهاله إملال وإدلال، وليظهر مكنون كفره كما هو، ويظهر مدخول النيات والطويات لمن يدعون الإيمان.
فلقد أغلقت أبواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٢٠ - ١٢١.

٢ - وأن ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[١] دونما استثناء، وقد نهي آدم فيها عما اشتهت نفسه!

٣ - وأن الداخل فيها ليس بخارج عنها: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٢] وقد مسّه نصب وأهبط عنها، وهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[٣] ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٤]:

٤ - وأن الكافر محروم عنها ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥] وإبليس كان من الكافرين!

٥ - وأن الخلد هي جنة الآخرة، لا يدخلها أحدٌ قبل الآخرة، فكيف دخلها آدم وزوجه في الأولى وقبل أن تقوم القيامة!.

٦ - وأنها ليست دار شريعة وتكليف وقد كلّف آدم فيها!

٧ - وأنه لا يدخلها إلّا من آمن وعمل الصالحات وجاهد وصابر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦] ولا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها ولا موقف للمصابرة قبل معركة الشيطان!.

٨ - وأنها لا تزلف لأهله إلّا عند القيامة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[٧] كيف يدخلها آدم قبل إزلافها وقبل ابتلاء التقوى!:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.
(٧) سورة ق، الآية: ٣١.

فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية أبواب، ثمانية أبواب شرحناها، ولم يدق آدم حينذاك ولا باباً واحدة فكيف دخلها؟!

أم كانت هي الجنة البرزخية؟

١ - ولا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا وكما تشهد لها آياتها: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١]:

٢ - ولا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات والأرض: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٢].

٣ - ولا يدخلها الداخلون إلّا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة والأولى دون الأبدان الأولى!

إذاً فلتكن هي من جنان الدنيا، وترى أنها من جنان الدنيا الأرضية؟ أم السماوية؟

والأرضية منها ترفضها آياتها: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ولا هبوط إلّا من أعلى إلى أدنى، ثم ولا تدل ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾[٣] على أنها المعني منها، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها، وتفسير آية بأخرى ليس أن تفسرها بما فُسرت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها، فإنه من ضرب الآيات بعضها ببعض، وهنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء:

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٤].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ حيث الأرض المستقر فيها هي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

كلُّ الأرض بجنانها وجاه السماء، وفيها حياة وموت وخروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها، وأن في الأرض الشقاء أياً كانت دون هذه الجنة: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[1] وفي الأرض بجناتها جوع وعرى وظمأ وضحى!

إذاً فلتكن هي من جنان السماء، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنان الأرض أبداً.

وهل خلق آدم وزوجه فيها ومن ترابها ثم أسكنا فيها استمراراً لكونهما؟ كما قد توحي له: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؟ والسكون لا يخص الاستمرار فيما كان، وقد يلمح للدخول، فلا يقال للمكوّن في مكان: اسكن فيه فإنه لا محالة ساكن فيه ما لم ينقل عنه، وإنما يقال: ابق فيها، فالسكون فيها هو الدخول، وكما توحي له خلافته الأرضية منذ خلق: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾.

إذاً فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها إلى جنة في السماء، علّها جنة المسيح عليه السلام التي رفعه الله إليها، مما يدل أن الحياة الأرضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء، فـ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ وبصيغة واحدة أنك فيها لا تشقى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

فلتكن فيها حياة بلا شقاء، بلا جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى، فلتكن فيها أحياء وسعداء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وترى كيف صعد إليها آدم وحواء ثم كيف هبطا؟ القرآن ساكت عنها، فلنسكت عما سكت الله عنه.

---

(١) سورة طه، الآيات: ١١٧ - ١١٩.

٢ - خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء ولماذا؟

إن آدم - دون شك - خلق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الأولى ولكنه لا بدّ له من تجربة واستعداد، إيقاظاً لقواه المكنونة، وإبرازاً لسوءاته المواراة ومعرفة لشيطانه الغاوي، تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوُّق النهاية، وتجرُّع الندامة، واللجوء المكين إلى ملاذ أمين.

فنسيان العهد، ووسوسة الشيطان في الشجرة المنهية، والصحوة بعد السكرة، والندامة بعد المعصية، التي بدأت لآدم وزوجه في الجنة، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية، فليستعد آدم وزوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض وليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض، فليعدّ عُدته وعِدّته لمعترك هذه الساحة بسلاح اليقظة حتى لا يقع في فخّه، ثم التوبة لو اعترضته اللمم، تلقياً من الله عهده فلا ينساه، ومعرفة عدوّه فلا يهواه! وتعرّفاً إلى كلماته ليتوب عليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إن تجربة الجنة توحي بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لولا الخطيئة وسوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة، كما وتتدارك حياته الأرضية أيضاً بالتوبة، وأن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر وبساطة، وحتى إذا كانت توبة وقتية فضلاً عن التوبة النصوح.

وتوحي أيضاً أن ما حلت في حياته من الطيبات أكثر بكثير مما حرمت من الخبيثات[1] فإن له أن يستعيض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء، فلا عليه إذ يهدف تبنّي حياة الجنة في الأولى والآخرة إلّا أنها تنغّص الحياة المريحة، وتهدم صرح الإنسانية.

(١) نستوحيه من ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوّك بما عرفه الله، والالتزام بعهد الله، ثم التوبة إلى الله إذا اعترضتك لمم، مثلث الحياة للخليفة الأرضية، التي تجعلها راجعة إلى ربها راضية مرضية!..

٣ - ما هي الشجرة المنهية؟

لا نجد لها اسماً في آياتها الثلاث، اللّهم إلّا سمات وآثاراً، وهي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء، إذ لا جدوى فيها إلّا تعريف المسميات، وعلّ القصد من الشجرة المنهية ليس شجرة واحدة مما نعرفها، وإنما جنس ما يتشجر تحريضاً للشهوات والتشاجرات، فليس لها - إذن - اسم خاص ولا مسمى خاص، وإنما كل ما يؤثر ذوقه وتناوله هذه الآثار: الخروج من حياة الجنة إلى حياة الشقاء والعناء، حياة الجوع والعرى والظمأ، والضحى وظهور السوءات، وهي في صيغة أخرى: نسيان عهد الله والإعراض عن ذكر الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا... وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1] كما في الآيات من طه، فضنك المعيشة وشقائها، والهبوط من حياة الجنة إلى أرض التجربة والبلاء، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة، التي تشجِّر الحياة فتعملها فوضى، وتتشجر عنها الحياة الظالمة المظلمة فتخلِّف عيشة ضنكاً!.

هذه هي الشجرة المنهية بسماتها دون أن نعرف اسمها أو أسماءَها حيث لا جدوى فيها إلّا سماتها، مهما تشجرت الآراء في اسمها، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى: شجرة المعرفة! وبين ما لا طائل

(١) سورة طه، الآيات: ١١٥ - ١٢٤.

تحتها أو لا صلة بها وآثارها، أو لا دليل لها من علم أو أثارة من علم[١].

وترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن والقبح، وهي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها، وأمره الله أن يعيشها متزوداً بها حياته وحياتها، منددّاً بمن لا يستظل في ظلها، ولا يتناول من ثمراتها؟ فكيف ينهى عنها؟

أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن والقبح؟ ومن القبيح عصيان الله! فليعرف فيتعرف إليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها! فلماذا عدّ من العصاة؟: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٢] فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة! ثم ولا عصيان قبل المعرفة! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية، وأما المجانين أو البُله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فليسوا هواء عصاة!

ثم آدم الذي عُلّم الأسماء كلها وأنبأ الملائكة بأسمائها، هلّا كان هو من العرفاء ولحد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصي ربه في ذوق شجرة المعرفة! إنها لقولة فارغة هُراء، خاوية عراء، والله منها براء!

وأما شجرة الكرم والنخلة والتين والحنطة والكافور والأترج والسنبلة فليست هي بالتي تؤثر هذا الأثر الرذيل، رغم أن التين مبارك في القرآن والسنبلة مباركة في حديث الرسول، والنخلة أمُ للآكلة، والحنطة إدام لدوام الحياة، والكافور ممدوح في القرآن، والأترج في السنة، فما هي الصلة الطبيعية بينها وبين هذه العرقلات للحياة مادية وروحية، اللّهم إلّا كونه نهي

(١) إنها بين ستة عشر قولاً: شجرة الكرم، النخلة، التين، الحنطة، السنبلة، الكافور، الأترج، الحنظل، المحبة، الطبيعة، الهوى. العلم بالخير والشر، الخلد، الحسد، شجرة علم محمد وآله، والمؤيدة ببعض الروايات منها هي: ١ - ٤ - ٥ - ٦ - ١٥ - ١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.

امتحان دون أن تحمل شجرته هذه وتلك من العرقلات، ولكنما التوبة - إذاً - لا بدّ وأن ترجع بصاحبها إلى ما كان من حياة الجنة لولا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة وشقائها، وكما أن ذوقها عصياناً لله نسيان لعهد الله وإعراض عن ذكر الله.

فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان، ومادّيتها من آثار هذه الشجرة، خلاف ما وصفها الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[١]!

ومهما يكن من شيء فلنسكت عما سكت الله، ونفصح مستصفحاً عما ذكر الله، وما هو في مثلث الآيات إلّا التي عرفناها: شجرة الإعراض عن ذكر الله، تتبع نسيان عهد الله، فتخلّف معيشة ضنكاً: انحرافاً وانهرافاً عن معنوية الحياة، وشقاءً وجوعاً وعرى وظمأ وضحى، التي تجمعها: «الهبوط عن الحياة العليا»: أسفل سافلين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[٢]: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم الآيات تنهى آدم وزوجه أن يقربا هذه الشجرة، مما يوحي بشدة النهي كما في سائر مواردها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[٣] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾[٤]...

ولكنما المنهي عنه هو الأكل منها أو ذوقها: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾[٥]

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة التين، الآيات: ٤ - ٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.